دراسات ادبية

الشيب والشباب
في شعر الشريف الرضي

بقلم . عزالدين آل يس
استاذ الادب العربي بدار المعلمين العالية

مما يتصل بغزل الشريف نوع اتصال ، وإن لم يكن منه في الصميم ، ذكريات الشباب ، وما تستتبعه من التبرم بالشيب والتأذى ببياضه . وللشريف في هذا الباب اعلاق كريمة مبثوثه بين مطولاته ومقطعاته المسوقة لاغراضه الأخرى ، وربما وقف بعض أناشيده على هذا الغرض دون سواه .

والظاهر ان الشريف أول شاعر فى العربية ، من حيث البراعة في تصوير الحنين الى الشباب وعهوده النواضر والفرق من الشيب وسيوفه البواتر .

تنبت شعرات فى عذاره أول ما تنبت ، فيشبهه بالروض يفتر عن أول الوسم ، ثم يذكر نفسه وماهو بسبيله ، فينكر أن يكون هذا النبت شعراء وانما هو نبت السيادة والرجاحه ، نبت يزيد الوجه المشرق ضياءاً ، كما تزيد بهجة النجم باشتداد الظلام .

رأت شعرات فى عذاري طلقة
كما افترطفل الروض عن أول الوسم
فقلت لها ما الشعر سال بعارضي
ولكنه نبت السيادة والحلم

يزيد به وجهي ضياء او بهجة وما تنقص الظلماء من بهجة النجم

ثم تظهر شعرة بيضاء فى عارضيه ، فيكبر الحادث ويستعظمه ، ويرى انه شبابه ينعى اليه بهذه الشعرة :

نظرت عويل آمها نظرة ببيضاء فى عارضي بادية
يقولون داعية للشبا ب فقلت ولكنها ناعية !

وأكبر الظن أن الشيب غزا وفرته وحط فيها رحله وهو لا يزال في ميعة الشبيبة ، لما يتجاوز العشرين ، فأعجله هذا الطارق المغير عن قضاء او طار الشباب النضير ، وهو يشبه سواد الشعر بسواد العين ، لأن زوال كل منها يقذى البصر . ويشبهه بليل لا قمر فيه ويرى انه على ظلامه وسواد عطفيه مضيٌ في عينيه ، والشباب فى رأيه هو الحياة ، والمشيب أذان بانقضائها ونصرمها :

عشرون أعجلن الصبا وجزن بي
غاياتـه وما قضين وطرى

فكيف بالعيش الرطيب بعدما حط المشيب رحله فى شعري
سواد رأس أم سواد ناظر فانه مذ زال أقذى بصري
ماكان اضوا ذلك الليل على سواد عطفيه ولما يقمر
عمر الفتي شبابه وإنما آونة الشيب انقضاء العمر

ويظهر أن الشيب عجل على مفرقه وعلى عارضه قبل أن يستكمل الشعر :

عجلت ياشيب على مفرقي واي عذر لك أن تعجلا
وكيف أقدمت على عارض ما استغرق الشعر ولا استكملا
كنت أرى العشرين لي جنة من طارق الدهر اذا أقبلا
فالآن سيان ابن أم الصبا ومن يسدى العمر الا طولا

ويتعجب من هذا الزائر الذي ماسلم حتى ودع ، وهذا العارض الذي ما غام حتى انحسر ، وهذا الزرع الذي ما أبقل حتى ذوى :

يازائراً ماجاء حتى مضى وعارضاً ماغام حتى انجلى
وما رأى الراءون من قبلها زرعا ذوى من قبل أن يبقلا

وهو يحيي من هذا الشيب المفاجئ طارقاً ثقيل الظل لانه يكبح جماحه ، ويعقر مراحه ، فلا طرب ولا لهو

ولا جناح على الرقيب اذا نام مطمئناً الى نصح هـذا العاذل الصاحي :

وطارق للشيب حيته سلام لا الراضي ولا الجاذل
اجرى على عودي ثناف الهوى جري الثقافين على الذابل
واعدني عقر مراحي له لله در الشيب من نازل
فاليوم لا زور ولا طربة نام رقيبي وصحا عاذلي !

وقد يغالطه الناس عن المشيب ، فيقولون : انه جلاء الحسام :

غالطوني عن المشيب وقالوا لا ترع انه جلاء الحسام

وربما غالط هو نفسه فقال :

وما المرء قبل الشيب إلا بمهند صدي وشيب العارضين صقال

ولكنه يعود فيكرر في تأكيد وإلحاح ، ان هذا الشيب الذي يعلو الرأس ، قضيب في يد الأيام لا تؤمن معه غرتها :

قلت ما أمن من على الرأس منه صارم الجد في يد الأيام

وتدنو هذه الأسياف من الرقاب متسللة لتقطعها :

أرنو الى يقق المشيب فلا أرى الا قواضب للرقاب تسلل

فهو لا يجزع لان لوناً حال الى لون آخر ؛ بل لأن الخطر بعد انسلال الشيب على حبل العاتق ، وشيك يستوجب الحذر :

وما جزعي أن حال لون وانما
أرى الشيب عضباً قاطعاً حبل عاتقي

وعلى الجملة فهو يعلل شدة نفوره من بياض الشيب بعلل مختلفات ينتزعها من خياله الخصب ويصورها بريشته الصناع

هو يمقت الشيب ويستثقله :

١ — لأنه زائر يطيل المكث ، فيبرم صاحبه ، يقيم فلا يرتحل ، وينزل فلا يريم :

ما نازل الشيب في رأسي بمرتحل عني وأعلم اني عنه مرتحل

٢ — لانه يظهر ما خفي من عيوبه ، فالناس لا تغتفر له مع الشيب زلة يبررها الشباب المشفع :

يبدي الخفيات من عيوبي ويظهر السر من عواري

ما لقائي من عدوى كلقائي من مشيب
موقداً ناراً أضاءت فوق فودي عيوبي

٣ — لأنه رائد الأجل وطليعته :

ورفضة من سواد الليل مطعمة كان المشيب اليها رائد الأجل

* * *

عقيب شباب المرء شيب يخصه اذا طال عمر او فناء يعمه
طليعة شيب بعدها فيلق الردى تراءى له نقع وبالقلب كلمه

* * *

واللمة البيضاء أهون حادث في الدهر لو ان الردى لا يعجل
ولقد حملت شبابها ومشيبها فاذا المشيب على الذوائب أثقل

* * *

وأرى المنايا ان رأت بك شيبة جعلتك مرمى نبلها المتواتر
تعشو الى ضوء المشيب فتهتدي وتضل في ليل الشباب الغاير

* * *

وجر الشيب في فودي ابيضه ياليته في سواد الشعر مغمود

٤ — لانه عون للعاذلين .

ما أبيض من لون العوارض أفضل
وهـوى الفتى ذاك البياض الأول

مثلان ذا حرب الملام وذاله سبب يعاون من يلوم ويعذل

بل الشيب أعذل من كل لاح ولائم :

هيهات أحوج مع شيبي الى عذل فالشيب أعذل ممن لامني بلما

فظهور البياض في العارضين يكفيها العذال مؤنة العذل والارشاد ، وذو الشيب مضطر أن يكون عند أمره المطاع

قل لعذولي اليوم ثم صامتاً فقد كفاني الشيب أن أعذلا
طبت به نفساً ومن لم يجد الا الردى أذعن واستقتلا
لم يلق من دوني له مصرفا ولم أجد من دونه مؤئلا

فاذا لاث الفتى على رأسه عمامة الشيب حيل بينه وبين الغرام والغرام :

لجام للمشيب ثنى جماحي وذللني لأيامي وراضا
أقر بلبه ولقد أراني اجاحده اباء وامتعاضاً
تعوضت الوقار من التصابي لشد على المعوض ما استعاضا
لوى عني الخدود من الغواني وقطع دوني الحدق المراضا